مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٢) العدد (٤)
الإصدار السابع
٢٠٢١ (٢٢٣-٢٣٦)
Arab Humanities Journal (AHJ)
Middle East Institution of scientific Publishing

تأثير الغياب على تشكّلات الهوية

(قراءة نفسيّة وجودية في رواية العطر لباتريك زوسكيند)

عهود منصور حجازي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها،
*جامعة الملك عبد العزيز، جدة، **المملكة العربية السعودية***
البريد الإلكتروني: oalihijazi@stu.kau.edu.sa
نشر إلكترونياً بتاريخ: ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١م

CC BY NC
This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

* **مقدمة**

تطرح رواية العطر [i] للكاتب الألماني باتريك زوسكيند[ii] قصة "جان باتيست غرنوي"، المولود بتفوّق فريد في حاسة الشمّ التي كانت دليله لاكتشاف ذاته. فقد ولد لأب مجهول وأمّ ميّتة، وكان منبوذاً بسبب مكانه من السلّم الاجتماعي، كما أنّه ـعلى نقيض نبوغه الشمّيـ لم تكن لجسده رائحة، بالتالي، لم يكن له حضور. يتدرّج غرنوي في تعرّفه على الشيء الذي يمكنه به اكتساب هوية، بالتالي يمكنه أن يفرض وجوده على الآخرين. وأثناء هذا الاكتشاف يتنقل غرنوي في الأمكنة والطرقات، ويجرّب العيش وحيداً، لكنه يقرر أن يخالط الناس ويحصل على مكان. تصل الأحداث إلى ذروتها عندما يشرع في قتل الفتيات اليافعات واحدة تلو الأخرى لتصنيع عطر فريد يخلق بواسطته وجوداً له هوية، وبعد أن يحاكم ويحصل على العفو؛ يكون قد توصّل إلى معرفة ما يريد على وجه الدّقة، فيرمي بنفسه وسط القتلة والمجرمين ليأكلوه، ويتوزع وجوده في أجساد البشر. كان سؤال الهوية يؤرّقه لأنه يحتاج إلى الحب، وبالحصول على الحب، لم يعد لديه ما يسعى خلفه. يعلو في السرد صوت الراوي العليم الواحد، وتعرض الأحداث حوارات قليلة، مع كثافة في الحدث، وانفتاح على خفايا عالم العطور، وأسماء موادها الخام، وتفاصيل تصنيعها. وفي الرواية تتركز الأحداث على مكانين هما فضاءا الرواية: باريس وغراس. تمثّل باريس نقطة البدء ونقطة الانتهاء، بينما تدور في غراس أحداث العقدة والحل.

تعرض الدراسة تشكلات الهوية تحت تأثير غياب الوالدين والروابط الاجتماعية من وجهة نظر نفسية إضافة إلى بعض الإشارات الوجودية، وذلك للإجابة على سؤاليّ

البحث، المتمثلين في كيفية بحث غرنوي عن ماهيّته، والهدف من الوصول إلى هذه الماهية.

ولتحقيق غرض الدراسة؛ قُسّمت إلى ثلاثة فصول، هي: العدم، البحث، الوجود.

في فصل العدم، تُعرض ظروف ولادة غرنوي، ونشأته، وتنقّله بين الأوصياء، ابتداءً بالمرضعات، مروراً بدير مدام غايار، وانتهاء باستخدامه للسُّخرة عند الدبّاغ غريمل، وما رافق هذه المرحلة من اكتشافه لوجوده المنعدم، وحاجته إلى تعريف، وبداية لتمييزه المتفرّد للروائح، مع ربط غرابة شخصيّته بغياب دور الأم في حياته. وفي الفصل الثاني المعنون بالبحث، قُسمت المرحلة التي كان فيها غرنوي يحاول تكوين هويّة إلى مبحثين: نبوغه في محل العطار "بالديني"، والثاني هو شروعه في قتل الشابات الصغيرات. وهذان المبحثان يقع كلّ واحد منهما في بلدة شهيرة بالعطور هما باريس وغراس، ويشّكلان فضاء السرد. كما تنقسم مرحلة غراس إلى قسمين، أولاهما إدراك النقص، وثانيهما تكوين الماهية. وفي التحليل ربط بين اختيار الفتيات اليافعات ونشأته يتيماً. أما الفصل الثالث: الوجود، فيجيب على تساؤلات الدراسة في مبحثين: المحاكمة، والتروع إلى العدم. وفيه إجمال لحاجات غرنوي، وتصاعد قدراته، وحصوله على مبتغاه، من ثمّ اتجاهه للفناء بعد إشباع حاجاته النفسية. وفي النهاية تُجمِل الخاتمة الدراسة كاملة، مع الإشارة إلى أهمّ النتائج.

*** العدم**

يفتتح السارد قصة غرنوي بوصف أجواء كئيبة لمدينة باريس في القرن الثامن العشر، حيث يسود الإهمال والقذارة، ويكثر اللقطاء، وتنعدم الروح الحضارية. في هذا الفصل تتشكل سمات غرنوي الشخصية التي سوف تلازمه في حياته، من خلال ظروف ميلاده، ونشأته، ثم عمله في سنّ صغيرة كأجير في محلّ دباغة.

١- الميلاد

وُلد بطل رواية العطر "غرنوي" في بيئة باريس النتنة، وضعته أمه تحت عربة السمك التي كانت تكسب منها قوتها، ثم ألقت به بين الفضلات والذباب، تمهيداً لرميه في النهر مع بقية المهملات أثناء عودتها من العمل. لكنها لم تتمكن من إتمام ذلك، فقد وجده الناس، واعترفت أمه بأنها كانت سوف تتركه للموت، فتم تحويله إلى مرضعة، وحُكم على أمه بالإعدام تحت المقصلة. لقد كانت نشأة غرنوي كطفل لقيط لها تأثيرها على نبذه مِن قبل المحيط، إضافة إلى غرابة أطواره وشراهته، جنباً إلى جنب مع أمر مهم، هو أنه طفل بلا رائحة. فقد كان انعدام رائحته بداية لنعته بـــ "ابن الشيطان" فالرائحة هي التعريف الرسميّ للإنسان بحسب اتجاه الرواية. لكنّ الراهب الذي تولّى استلامه كان له رأي آخر، إذ كان يعتقد بأنّ "رائحة الإنسان هي دائماً رائحة جسدية، فهي إذن رائحة آثمة، ثم من أين ستأتي الرائحة لرضيع لا يعرف الخطيئة الجسدية ولا حتى في الحلم؟". كانت الرائحة عند الراهب تعني ارتكاب الخطايا، ودلالة على الوعي بالجسد. بالتالي لم يخرج عن فكرة المرضعة التي اعتقدتْ بأنّ الطفل الذي لا تفوح منه رائحة الزبدة والكراميل هو ابن للشيطان حقاً، فالرائحة دليل على وجود الإنسان البشريّ. وإذا افتُرض بأنّ الرائحة هي إثبات لوجود الإنسان، لذلك فإن عدمها هو تجريد لوجوده، بالتالي، كان غرنوي مولوداً متجرداً من الماهيّة التي تحدد معالم وجوده الأوّلي. وإذا تمّ التسليم بأهمية الرائحة للكشف عن الوجود، فإنّ غرنوي المولود لأمٍّ ميّتة قد فقَد هويته ــإلى جانب وجودهــ منذ اليوم الأول، لأنّ الأم هي التعريف الحقيقي لطفلها، إذ بها يتعرف على الحياة، وبواسطة حنانها يُدرك المشاعر الأساسية التي تستجيب لها الأم بعناية. لكنّ غرنوي وُلِد مُدركاً بالفطرة، فكان ــوهو طفل رضيعــ يستطيع التقاط الروائح بدقّة، ليس مجرد التقاط، بل تمييز، وفهم للرائحة، وقدرة على تذوّقها والتفاعل الحقيقيّ معها.

بدأ الأمر منذ كان الراهب يحمله بين يديه، وكان أنف غرنوي يتحرك تجاه رائحة الراهب "شعَر تيرير بأنّ الطفل يراه بفتحتي أنفه، محدّقاً، متفحّصاً بأكثر مما يستطيع الإنسان أن يفعل ذلك بعينيه، وكأنه يمتصّ بشراهة شيئاً ينبعث من تيرير". إنّ الطفل حين يولد؛ تنتبه حواسّه منذ لحظة الولادة وحتى يكمل عامه الأول، فيمكنه التعرف على الروائح والأصوات وكذلك الألوان، من ثمّ يجعلها في مجموع واحد يضمّ مكتَسباته كلها [iii]. تمضي الأحداث في إبراز أهمية التقاط الروائح بالنسبة للإنسان، وتأثير حاسة الشمّ على حركة العواطف، فهذه مدام "غايار" التي استقبلتْ غرنوي، بعد أن تخلّص منه الراهب بإيداعه ديرها؛ كانت لا تعرف ماهيّة المشاعر الإنسانية، بفعل ضربة تلقتها على أنفها وهي طفلة، أفقدتْها الشم والمشاعر معاً "عندما كانت طفلة؛ تلقت من أبيها ضربة بقضيب المدفأة فوق جذر أنفها بقليل، أدتْ إلى فقدانها حاسة الشمّ، وأي شعور بالدفء أو البرود الإنساني، بل أيّ عاطفة مهما كانت". ينقل السارد المتلقي هنا إلى فكرته الأساسية: الأنف مدخل إلى النفْس، ومن الأنف يمكن فهم العالم. وهو بهذا يستدعي رؤية هايدجر التي يؤكّد فيها على استلهام معنى الحياة من الموجودات المحيطة "إن عملية فهمنا للوجود لها تحديدها وتعيينها في ذاتها، بمعنى أنها ترسم حدودها ومخططاتها بواسطة الوجود ذاته"[iv].

٢- النشأة

لقد نشأ غرنوي في ملجأ الأيتام نشأة صارمة، يأكل فيها أسوأ أنواع الأطعمة، ويُعامل كما لو كان شيئاً، لكنه لم يتأثر، فقد نما نمواً سليماً خالياً من العقد والأمراض، وكان لهذا النموّ سبب تضمّنه الحدث، ذلك أنّ غرنوي "كان شديد المقاومة كالبكتريا المنيعة، وقنوعاً كقرادة ضئيلة (....) كان جسمه قادراً على الاكتفاء بالحدّ الأدنى من الغذاء والملبس، أما روحه، فلم تكن بحاجة لأيّ شيء، فالطفل غرنوي كان بغنى عن الشعور بالأمن والدفء والحنان والحب، أي عن كلّ هذه التسميات التي يزعم البعض أنّ الطفل بحاجة إليها". هذا يحيل إلى مبدأ سارتر في اختيار الانسان صفاته التي تصنع حياته (مع تجاوز إلحادها) إلا أنه يشير إلى أنّ الإنسان "يولد أولا، ثم يتعرف إلى نفسه، ويحتكّ بالعالم الخارجيّ، فتكون له صفاته، ويختار لنفسه أشياء هي التي تحدده"[v] إنّ الاستزادة من مقومات الحياة سببها وجود المشاعر المتطلبة لتلك المقومات، فوجود المشاعر البشرية دافع للتألم أو الغضب أو الحزن تجاه الظروف غير الإنسانية، ولكن بانعدام الشعور، تنتهي تلك المشكلة، ويصبح بوسع الإنسان أن يتكيف ــبدون اعتراضــ على قسوة حياته.

حين بدأ غرنوي الكلام في الرابعة من عمره، كانت أول كلمة نطقها هي "سَمَك"، ما يعيد القارئ إلى دائرة ولادة غرنوي من جديد، حين فقَد حياته الحقيقية تحت طاولة السمك، وجُمع مع القاذورات كي يموت في آخر النهار. فكأنّ ذاكرة الطفل تحاول تفكيك المشكلة، سيّما مع ملاحظته نفور الأطفال منه وخوفهم، ومحاولتهم قتله، على الرغم من أن شكله الخارجي لم يكن مدعاة للنفور. لقد كان يلوذ عن غير قصد بمكان الأمان الوحيد الذي عرفه قبل الإدراك. إنّ الأثر اللفظي يُستمدّ من الإدراك الحسيّ السمعيّ، فأساس الكلمة في التأويل النفسيّ هو الأثر الباقي في ذاكرة الإنسان عن الكلمات المسموعة[vi]، ما يجعل الذهن يذهب إلى ترداد كلمة "سمك" في سوق السمك دون شك، ولمرات كثيرة، وقت ولادة غرنوي، والتقاطه لها عن طريق جهازه اللاواعي. إنّ مفردة "سَمَك" تجعل القارئ يفكّر في ارتباط مكان الولادة بسير الحياة مستقبلاً، على الرغم من اعتباطية هذا الارتباط، لكنّ تأثير مكان النشأة مهمّ في تكوين الإنسان ونصاعة ذاكرته، مما يمكن ربطه بمصطلح (physis) المشير إلى قوّة النشوء بحسب هايدجر الذي يشرح معناه، فيقول "هذا المصطلح يعني عملية النشوء، انبثاق الأشياء من مكانها الخفي والمستور، حيث المخفي والمستور يكون أول ما يتراءى إلى

المشهد والنظر"[vii]. من جانب آخر يؤكّد هايدجر على قيمة النشأة الأولى، إذ يعزّز فكرة امتداد القيمة بحسب صفة البدء، فيقول: "إن الشيء العظيم يبدأ بداية عظيمة، ويحافظ على ذاته فقط من خلال العودة والتكرار الحر للعظمة التي فيه، وإن كان عظيما حقا ينتهي أيضا وسط العظمة"[viii].

لقد بدأ غرنوي من العدم، اكتسب صفة "اللقيط" و "ابن الزنا"، أمّه ميّتة، وهو فقير، وغير مرغوب، لم يكن له بيت، و لم يحصل على روابط عائلية أو صداقات، لذلك، انبثق في لا وعيه ضرورة خلق هوية وجودية، فتعرّف للمرة الأولى على إدراكه للروائح. كان إدراكه الأول لنبوغه الشمّي حين اكتشف أن بوسعه التمييز بين أنواع الخشب عن طريق رائحتها "ارتشف رائحة الخشب الطيبة، غرق فيها، وترك نفسه يتشرّبها حتى أدقّ مسام في جسمه، لدرجة أنه أصبح والخشب شيئاً واحداً". لم يكن غرنوي يتعرف على الموجودات باسمها، ولكن عن طريق الرائحة المنبعثة منها، لأنّ اللغة في تفكيره كانت للتواصل مع البشر، أما الرائحة فهي أكبر من الكلام، كانت الرائحة تقوده إلى الإدراك، وهذا الإدراك يأخذه لاكتشاف ذاته المجهولة بالنسبة إليه، والتي لا تملك ثقلاً يُذكر في هذا العالم "إنّ هذا الاضطراب الغريب العجيب في العلاقة ما بين العالم الذي يعج بالروائح وبين فقر اللغة، جعل الصبي غرنوي يشكّ بمعنى اللغة، فلم يستسهل استخدامها إلا عندما كان يضطر للتواصل مع الناس الآخرين".

كان الطفل غرنوي نابغة في تمييز الروائح، لم تكن قدرته عادية، وكان في نبوغه هذا طفلاً مرهوباً لمدام غايار، فهو يعرف أماكن النقود التي خبأتها من مجرد تشمّم الهواء، وكان لا يخاف من الظلام ولا يتألم من ضرب العصا، وهذا مخالف لطبيعة الأطفال في سنّه.

٣- العمل

شكّلت هذه المرحلة نقلة مهمة في حياة غرنوي، فقد اصطحبَتْه مدام غايار إلى دبّاغ يُدعى "غريمال" كان مشهوراً باستخدام الأطفال للسُّخرة، وتركتْه هناك بدعوى انقطاع دعم الكنيسة عنه، بالتالي، تخلصتْ منه بدفعه للدبّاغ، وتسلّمتْ مقابله إيصالاً وبعض المال. أما غرنوي، فقد عرف من رائحة غريمال بأنّ الرحمة مفقودة في قلب هذا الرجل، وأنّ بوسعه إفقاده حياته عند أيّ عصيان "فحياته لم تعد تساوي الآن أكثر من العمل القادر على إنجازه". من الملفت أنّ غرنوي خلال أحداث القصة كان متمسكاً بحياته التي لا تمثّل قيمة لأيّ أحد، وكان يعرف كيف يُشعر الآخرين بخفّة وجوده كيلا يدركوا مساحته من الحيّز الذي يشغله، من ثم قد يتعمّدوا الإضرار به، وكان إصراره على الحياة يدفعه إلى التجلّد والعمل "فقد ارتفعت قيمة عمله، ومعها قيمة حياته". هنا يثبت سلوك غرنوي بأنّ العامل الاقتصاديّ ليس الدافع الوحيد للعمل ــبحسب سارترــ، بل إنّ تأثير العامل النفسي أكبر مؤثر في سلوك الكائن الحيّ، لأنّ هذا العامل بوسعه تحديد أفعال الناس، فالإنسان لا يعمل إلا بدافع غريزيّ، مثل غريزته في المحافظة على نفسه، أو مدفوعاً بالحاجة إلى الحب أو تفادي الألم [ix]. بوصول غرنوي إلى مرتبة فُضلى عند غريمال، مُنح في الثالثة عشرة من عمره ساعة حُرّة بعد العمل، وقد اختار إنفاقها في باريس التي وُصفت في الرواية بأنها "أكبر منطقة روائح في العالم". لكنّ ارتباط غرنوي النفسيّ بباريس منذ الولادة كان هو الباعث على العودة إليها، واعتبار رائحتها المهد الأول للتكوين، وتنبيهه لحاجته إلى هويّة "كان أنفه الحساس قادراً على فكّ هذه الكتلة المؤلفة من الأبخرة والنتانة إلى خيوط روائحها الرئيسية غير القابلة للتفكيك أكثر مما فعل، وكم كانت متعته هائلة بلفّ هذه الخيوط وإعادة نسجها على هواه". وهنا يمكن إجمال مرحلة العدم التي بدأ

منها غرنوي في أربعة أشياء: موت أمّه، انعدام رائحته، طفولته تحت وصاية مدام غايار، وعمله عند الدبّاغ غريمل.

*** البحث**

يمكن تقسيم المرحلة التي كان فيها غرنوي يحاول تكوين هويّة والبحث عن ذات إلى مبحثين: نبوغه في محل العطار "بالديني"، والثاني هو شروعه في قتل الشابات الصغيرات. وهذان المبحثان يقع كل واحد منهما في فضاء سرديّ متجسد في مدينتيّ: باريس وغراس.

١- باريس: النبوغ

لقد كان وجود غرنوي بلا هوية أمرٌ لا يمثل له في الحقيقة أي مشكلة في صغره، لكنه باكتشاف حاسته المتفوّقة، استطاع التوصّل إلى الحكمة من تتبعه للروائح، إذ لم يكن هذا التتبع منبعثاً من مجرد شيء قادر على فعله، بل من حاجته إلى التعريف، وهذه الحاجة الماسة ارتبطت عنده بالإصرار على تجويدها، واستخدام مخرجاتها لصنع قيمة ذاتية. كان الانقلاب الحقيقي في حياة غرنوي عندما التقط أنفه رائحة شيء طيّب أثناء الاحتفال بتتويج الملك في شوارع باريس، ولدقّته الشديدة في تمييز الروائح، عرف بأنها رائحة نادرة، وشعر بالألم البشريّ فجأة "وللمرة الأولى لم يكن الألم ناجماً عن تعرّض شخصه الجشع للمهانة، بل كان قلبه فعلاً هو الذي يتعذب، فقد خامره إحساس غريب بأنّ هذه الرائحة الطيبة هي المفتاح لعالم الروائح الطيبة الأخرى كلها، وبأنه ليس بمستطاع الإنسان أن يفهم الروائح الطيبة؛ إن لم يفهم هذه بالذات". وباتباع حاسّته المتفوّقة؛ تمكن غرنوي من الوصول إلى مصدر الرائحة التي كانت لجسد شابة صغيرة تعمل في الشارع "مئات آلاف الروائح لم تعد تساوي شيئاً أمام هذه الرائحة بالذات، هذه الرائحة بالتحديد كانت المبدأ الأعلى الذي يجب على الروائح الأخرى ان تصنّف نفسها وفقه". لكنّ غرنوي بوصوله إليها لم يكن ينظر بعينيه، بل بأنفه، لذلك اقترب منها وخنقها بيديه حتى ماتت، ثم بدأ باستنشاق جسدها بدون أن يشعر بالأسف ولو لحظة "لم ينظر إليها، لم ير وجهها الناعم الموشّى بالنمش، ولا شفتيها الحمراوين، ولا عينيها الخضراوين الواسعتين المتلألئتين، فقد أغلق عينيه بإصرار وهو يخنقها، إذ لم يكن ثمة ما يقلقه سوى فقدان لو ذرّة واحدة مِن شذاها". هنا يتبادر سؤال حول تسمية الفعل الذي قام به غرنوي، وأدى إلى مقتل الفتاة، هل هو قسوة؟ إنّ القسوة في تعريفها تدلّ على" فعل يتضمن سلوكاً مقصوداً ومتعمّداً"[x] لكنّ غرنوي اندفع إلى قتل الفتاة بدون رغبة في القتل، بل إنه أزهقها وتركها بدون ندم أيضاً. قد يكون عدم اكتراث (Indifference) وهو الأقرب للتركيبة النفسية لشخص غرنوي، إذ يعني عدم الاكتراث "أن تحيا الذات في عالم صَرف من الأدوات والأشياء، وأن تتخيل أنها وحدها التي تستطيع أن تَرى، وأن تُرى، فتخدع بذلك نفسها، وتموّه وجودها، وتزيّفه"[xi]. يجدر الوقوف على انعدام مشاعره البشرية في موقف القتل هذا، فلم تتحرك فيه نوازع الشفقة أو الحزن، ولم تدفعه للهرب مخاوف الملاحقة والقتل، فقد كان متجرداً من أيّ روابط حسيّة تجمعه بالبشر، إذ يتلقى الطفل منذ ولادته منظومة المشاعر على يد أمه، فيفهم معنى الإيجابي منها والسلبي، وأثر كل واحد على علاقته بأمه، وبتكرر المواقف، يمكن للطفل فهم النمط الذي يفرضه شعور بعينه، ويربط بينه وبين اللغة الدالة عليه، من ثم يتبناه، ويتمثّله. لكنّ غرنوي لم يمتلك هذه المزية بسبب نشأته كيتيم، وعمله في السُّخرة تحت ظروف غير إنسانية، بالتالي انعدمت لديه الأنماط الشعورية التي تعزز من فكرة الوجود. وترى كاثلين تايلور بأنّ الأنماط "تعكس حالة وجودنا نحن أكثر مما تعكس العالم المحيط بنا، إنها لا ترتبط بصفة خاصة مع الأشياء، ولكنها تتماشى مع أحاسيس الجسد"[xii] وهذا ما لُحظ في سلوك غرنوي أثناء قتله للفتاة الشابة، إذ دلّ تعاطفه المنعدم مع موتها على انعدام إحساسه بوجوده هو، لأنّ ما يربط الإنسان بإحساسه بوجوده هو مشاعره. لكنّه بمجرد قتله للفتاة اكتشف أنّ

بوسعه الحصول على هوية حقيقية، متمثلة في امتلاكه لقدرة شمّية نادرة "انتابه شعور بأنه يولد من جديد، لا بل للمرة الأولى، فحياته حتى الآن كانت لا أكثر من وجود حيواني غارق في ضباب كثيف يغلّف معرفته بذاته، لكنّ هذا اليوم بالتحديد هو الذي جعله يدرك أخيراً هويّته الحقيقية". باكتشاف غرنوي لهويّته، كان سعيه القادم متركزاً على إبراز هذه الهوية، بحيث لا يتشابه فيها مع أحد آخر، كانت الرغبة في التفرّد تسبقه، لذلك اهتدى بمحض الصدفة إلى دكان العطار "بالديني" وهناك تحرّكت رغبته في الحياة حين تسللت الروائح المختلفة إلى أنفه، فقد "خامره إحساس بأنه ينتمي إلى هذا المكان، وليس إلى أيّ مكان آخر، وأنّ عليه أن يبقى هنا، من حيث سيتمكن من قلب العالم رأساً على عقب". إنّ الهوية تعني "الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأغيار، وتقال بالترادف على المعنى الذي يُطلق عليه اسم الموجود"[xiii]. لذلك فإن سير الوعي كله ينتظم على مبدأ الهوية التي ما إن يفهمها الإنسان حتى يسلّم بها، مما يعني أنّ الحديث عن أي شيء يعدّ متعذراً إن كان فاقداً للهوية [xiv]. كانت رغبة غرنوي لا تنحصر في إيجاد مكان له على الأرض، بل في التميّز عن أيّ بشر آخر، ربما هي الرغبة في التعويض بشدة عن الشيء الذي افتقده بشدّة. كما أنّ شيئاً آخر كان يحرّك غرنوي أثناء البحث عن وجود، ذلك الشيء هو شعوره الداخليّ بالخذلان، لقد تخلى عنه الجميع بدءاً من واهبة الحياة الأولى، بالتالي، كان تمسكه بالحياة يمثّل ردة فعل عنيفة على ذلك التخلّي. لذلك عرَض غرنوي نفسه كعامل في عطارة بالديني، مسوّقاً لنفسه بالشيء الوحيد الذي كان بالديني يحتاجه، قال معلناً عن هويته الوحيدة "أنفي هو الأفضل في باريس كلها يا معلمي". بالتالي حصل على الوظيفة. كان ذكاء غرنوي قد مهد له الطريق لحيازة مكان في محيطه، فتعلّم حرفة العطارة، لأنه كان بحاجة للظهور بمظهر الحرفي أمام المجتمع "كان يعرف أن الوصول إلى بغيته يتطلب توفير شرطين أساسيين لا غنى عنهما: أولهما توفير الغطاء الاجتماعي، أي الانتساب على الأقل إلى الجمعية الحرفية بصفة أجير مؤهل (..) وثانيهما معرفة جميع العمليات والطرائق الحرفية المستخدمة لإنتاج الروائح وعزلها وتركيزها وحفظها، بحيث تكون جاهزة في الوقت المناسب لاستعمالها لهدف أعلى". هنا يبرز هدف آخر لدى غرنوي متعلق بفكرة الوجود بالنسبة له، هذا الهدف هو إيجاد انتماء. إذ أدرك غرنوي بأنّ انتماءه إلى طبقة ما أو مهنة بمسمى محدد يمنحه الشرعية في الظهور داخل المجتمع، إضافة إلى ما يمنحه الانتماء من مزايا. ومن حسن حظه أنّ انتماءه كان إلى الحرفة التي تحددت بها هويّته، فقد منحه العطار بالديني فرصة تجربة المواد التي يستطيع بها ترجمة الروائح التي تتزاحم داخل عقله، والتي بإخراجها للعلن تصبح أشياء مُدرَكة. وعلى أنّ بالديني ظلّ يُفهم غرنوي بأنه "أقلّ من لا شيء"، وظلّ يذكّره بأنّ المكانة المجتمعية لا تُنال في حالته "فلكي يُعتبر تلميذاً نظامياً لابد أن تتوفر فيه شروط لا عيب فيها: معرفة أسماء الزوجين اللذين أنجباه، المنبت الاجتماعي المعترف به، وعقد الاتفاق بينه وبين معلّمه". مع ذلك؛ لم يتمكن من الحيلولة دون تحقيق رغبات غرنوي في تعلّم الحرفة بدقّة. ومن ذلك، دلالته لغرنوي على آلة التقطير التي يمكن بها استخلاص الزيت العطريّ من الأزهار، وقد ظلّت هذه الآلة مصدر إلهام لغرنوي للوصول إلى ما يصنع به هوية له، إلا أنه وجد بأنّ هذه الآلة قاصرة، وبأنّ عملها محدود. وكان فشل غرنوي بالنسبة له لا يعني مجرد انتهاء التجربة، بل يعني أنّ الشيء الذي يمنحه قيمة حياته في طريقه للتلاشي، لذلك؛ سقط غرنوي مريضاً عند فشل محاولاته لاستخراج الروائح من المواد الطبيعية عن طريق آلة التقطير التي يملكها بالديني، وكان مرضه ناتجاً عن إحباطه. لقد كان غرنوي عبقرياً حقاً، وكان قصور الأدوات يقلل من فرصة تجلّي عبقريّته الشميّة، لذلك كان مرضه حقيقياً حين شعر بأنّ هناك ما يمكنه تقويض إبداعه. إنّ أبسط تعريف

للعبقرية هي أنها "مانح قيمة، يحظى باحترام الكثيرين على أنه مقدس، مع الإشارة إلى أنّ ما يحدد حجم المتعة لا يتحدد فقط بمجرد أداء العبقرية، بل بتفاعل العمل والشخص والشهرة التي تحمل روح الشيء الخارق"[xv]. هذا الأمر يفسّر ارتباط شفائه بمعرفة الطرق الأخرى لاستخراج الرائحة التي عرفها فيما بعد "هناك ثلاث منها يا بنيّ: أولاها مَرْث الأزهار بدرجة حرارة معيّنة، وثانيتها مرث الأزهار بدرجة برودة معيّنة، وثالثها مرث الأزهار بالزيت أو الدهن، وهي كلها تفوق التقطير جودة"، ثم سأله مرة أخرى عن المكان الذي تُطبّق فيه هذه التقنية، فأجابه بأنها في مدينة غراس، جنوب فرنسا. وبهذه الإجابة شُفي جسد غرنوي، واستعاد حياته.

٢- غراس: التنفيذ

تجري أحداث هذا القسم في مكانين: الجبل الذي اعتزل فيه غرنوي وفيه اكتشف أساس مشكلته الوجودية، ومدينة غراس حين بدأ بتنفيذ خطته وتكوين هويّة.

القسم الأول: إدراك النقص

في الطريق إلى غراس؛ وجد غرنوي نفسه على الجبل، حيث تنعدم الرائحة البشرية، وقرر في ذلك الوقت تغيير خطته والاستقرار في أحد الكهوف "لقد أفلح من الحقد المقيت، إنه حقاً لوحده تماماً، إنه الإنسان الوحيد في العالم!". هنا يُطرح تساؤل عن الشيء الذي جعل غرنوي حريصاً على الابتعاد عن البشر، وسعادته بالاستقرار وحيداً في منفى الجبل. ويمكن الإجابة على هذا السؤال بمعرفة أنّ وجود مكان لم يسبق لبشريّ أن وطأه في هذا العالم هو أكثر شيء بعث السعادة في قلب غرنوي، لأنه في داخل نفسه كان يشعر بتفرده، في المقابل كان البشر يحتقرونه. لذلك كان إيجاد مكان خليق به، و لم يُسبق إليه بمثابة الجائزة التي ظنّ أنه أهلٌ لها، وبهذا، تمسّك بالمقام في الجبل والعزلة التامة لمدة سبع سنوات "كان مستغرقاً استغراقاً كلياً في وجوده الذاتي، دون أن يعكّر صفوه أيّ شيء، واجداً في ذلك أقصى متعته". إنّ الاتصال بالآخرين يمتنع إذا تبع الفرد حريّته، وشعر بها إلى أقصى درجاتها (كما فعل غرنوي في عزلته الجبلية)، فالاتصال مع الآخر يستلزم الصراع، والصراع يستلزم مواجهة الآخر والشعور بالاختلاف عنه، بالتالي يمكن للإنسان أن يكون نفسه[xvi] يمكن تفسير اللجوء إلى الجبل في هذه المرحلة من حياة غرنوي بالنكوص (Regression) الذي يدلّ على تراجع في النشاط النفسي إلى مرحلة سابقة من الإشباع، أو حال مبكّر من أحوال الأنا، كما يدل النكوص على وجود نقطة ثبت فيها الإشباع الغريزيّ، يعود إليها الفرد كلما تعذّر عليه الوصول إلى الإشباع في المستوى الذي بلغه، ويشير النكوص أيضاً إلى وجود حرمان من الإشباع في الوقت الراهن[xvii]. لقد كان لعزلة غرنوي في كهف الجبل أثرها في التطهير الذي تجلى من خلال لفظ الروائح الكريهة، وترتيب الروائح المحببة في مكتبة تخيّلية، بحيث استعاد غرنوي صفاء تفكيره بدون التعرض للمقاطعة. لكنّ الشيء الذي شكّل تصعيداً للحدث السرديّ، هو اكتشافه أنه لا يملك رائحة، هذه الحقيقة التي يعرفها القارئ منذ بداية القصة عن طريق ردود أفعال المحيطين بغرنوي، لكنّ غرنوي عرفها على قمة الجبل في ذلك الوقت، فأصابته بالذعر من نفسه، على الرغم من مغالطته لها "ليس الأمر أنه لا رائحة لي، فلكل شيء رائحة، بل الأمر على الأغلب هو أني أنا لا أشم رائحتي الخاصة، ولو تمكنتُ من عزل رائحتي عني أو جزء منها على الأقل، وعدتُ إليها بعد فترة من الغربة عنها، لتمكنتُ من شمّها، أي مِن شمّ نفسي". كان سبب الذعر مفهوماً، فغرنوي حين اختلط بالناس اختلط بهم لأجل كسب مكانة بينهم ولو كانت ضئيلة، وهو حين اعتزلهم، كان يريد استعادة نفسه بقصد خلق وجود، مع التذكير بأنّ هوية الشيء عند غرنوي كانت تتحدد برائحة ذلك الشيء، فكيف يغدو الآن هو بنفسه المتفرد بصفاته بدون رائحة، بدون هوية، أي بدون وجود. إنّ سؤال الكينونة يتضمن تعريف الكائن بما هو كائن

[xviii] بالتالي، فإنّ فقدان الكينونة يُفضي إلى تجريد الكائن من قيمته، ويدفع به إلى الرغبة في لفت النظر وارتكاب الجرائم.

عند وصول غرنوي إلى غراس؛ التحق بورشة صغيرة للعطور تملكها السيدة "أرنولفي"، وهناك تدرّب على عملية استخراج العطور بالطريقة الباردة التي سيستخدمها لاحقاً في تحقيق ذاته، مع التركيز على العزلة المجتمعية "كان معلّماً في فنّ الإملال، وفي إظهار نفسه كغبيّ مسكين، ولكن دون أن يبالغ إلى الحدّ الذي قد يصبح معه موضع هزء وتندّر من قِبل الحرفيين". يمكن تفسير ابتعاد غرنوي عن العلاقات الاجتماعية من مبدأ التعبير عن رغبة غير مُشبَعة من جهة الأم، فالطفل في نشأته يرفض لا إرادياً رؤية الغرباء في حال غياب أمّه التي يعني وجودها الوصل بين الطفل والجمهور، ومن خلالها تنشأ الغريزة القطيعية في الأبناء، متكوّنة من أشياء صغيرة في البداية، كالعلاقات الأسرية وكالغيرة بين الإخوة، مما يؤدي إلى وجود اتحاد أوّلي في البيت، يعزز الشعور بالانتماء، من ثم التضامن [xix]. الأمر الذي كان منتفياً في نشأة غرنوي، وأدى غيابه إلى نفوره من المجتمع، وشعوره بالغربة والعزلة.

القسم الثاني: تكوين الماهيّة

في مرحلة متقدمة من معرفة غرنوي بطريقة الحفاظ على رائحة كائن حي بتركيبتها النقية، وذلك عن طريق مفاجأة الكائن المقصود بضربةٍ قاتلة على رأسه من الخلف، فيسقط ميّتاً قبل أن يخاف أو يتألم. في تلك المرحلة من المعرفة، بدأت مدينة غراس بفقد فتياتها الصغيرات، من ثم العثور عليهنّ مقتولات بضربة خلفية على الرأس، متجردات من ثيابهنّ، ومقصوصات الشعر، مع بقائهنّ عذراوات، وكان لهذه الفتيات صفات مفضّلة لدى غرنوي "فدائماً ما كانت الضحايا في ذلك السنّ الذي تبدأ فيه الفتاة بالتحول إلى امرأة، ودائماً أيضاً من ذلك النوع الفائق الجمال والبالغ التأثير" وهنا يتبادر سؤال عن سرّ احتيار غرنوي لفتيات بهذا المواصفات تحديداً لقتلهن وفق نمط موحّد. وللإجابة على هذا السؤال، تجدر العودة إلى نشأة غرنوي يتيماً بدون أمّ، ونشوء علاقة بينه وبين تلك الأم غير الموجودة باستحضار رائحة وجودها، الذي يفترض أنه كان هو مراده من البحث عن الرائحة طوال حياته. إنّ مجرد تصور رائحة الأم يأخذ الذهن إلى مفردات مثل الحنان، والرعاية، والعطف، والتسامح، وهي الرائحة نفسها التي يتصور غرنوي أنها تحمل نفس الصفات في الفتيات اليافعات، كما أنهنّ عاجزات عن إلحاق الأذى به، وهنا، من هذه الصفات أمكن لغرنوي استخلاص رائحة تجمع هذا كله، وتربطه بأمّه التي لا يعرفها. إنّ رائحة الإناث اللاتي لم يمعنّ في الأنوثة، تتشابه إلى حدٍّ كبير مع رائحة الأم التي يدركها الجنين عند الولادة، رائحة الدم، والجلد والحليب، والثدي، ورائحة الأب أيضاً [xx]. وحين يُقال بأنّ الأم غير الموجودة هي ثغرة في حياة ابنها، وبأنه يسعى طوال حياته لسدّ تلك الثغرة فهذا صحيح. لقد كان بوسع غرنوي اختيار الأطفال اليافعين من الذكور، فلهم نفس الصفات المميزة للإنسان الذي ينتقل إلى مرحلة الشباب، ولكنه اختار جنس الإناث على الخصوص، مما يؤكد افتراض الدراسة أنّ جرائم غرنوي ورغبته في إيجاد هوية خاصة له من خلال العطور البشرية، كان هدفها الخفيّ الذي لا يدركه غرنوي هو التواصل مع أمّه والتطهر من الشعور بالذنب الذي نشأ من ارتباط ولادته بإعدامها. إنّ الإحساس بالذنب عند اشتداده يكون دافعاً للجريمة، وليس ناتجاً عنها، إذ يؤدي ارتكاب الجرائم إلى تكوّن شعور بالراحة في نفوس المجرمين، ناتج عن الربط بين الإحساس اللاشعوري بالذنب والشيء الواقع [xxi].

ويمكن قراءة الافتتان العطريّ للفتيات من وجهة نظر فرويد، الذي افترض بأنّ كبت الميول الجنسية، يؤدي إلى توليد وَهْم من التعلّق بصفات أخرى في الموضوع المحبوب، (مثل الرائحة في هذه الدراسة)، والتي لا تنشأ إلا تحت تأثير اللذة الشهوانية [xxii]، إضافة إلى ما أشار إليه فرويد من أنّ

التعلّق ناشئ من إرادة الحلول، أي حلول شخص المحبوب لما فيه من مزايا في شخصية المحب، بالتالي يكون التعلّق شكلاً من أشكال النرجسية الذاتية [xxiii]. وهو الملحوظ في تتابع سلسلة الجرائم التي ارتكبها غرنوي، واختياره للفتيات اللاتي يمثلن له الأم الغائبة، والاحتواء المطلق. كما تجدر الإشارة إلى أنّ الرغبة في العنف (متمثل في القتل هنا) لها علاقة بمصطلح (السادية)، وهي أحد أشكال الانحرافات الجنسية، التي تتحصل على اللذة من خلال القسوة والعدوان [xxiv].

*** الوجود**

يمكن إجمال أحداث هذا الفصل في مبحثين، هما: يوم تنفيذ الحكم بالإعدام على غرنوي، والنزوع إلى العدم. وتجري أحداثهما في فضاء بلدتين، أولاهما غراس (مسرح الحدث الرئيسيّ)، وثانيهما باريس (المكان الإطاريّ للقصّة).

١- المحاكمة

بإلقاء القبض على غرنوي، واقتياده للمحاكمة، اعترف بالقتل بدون تردد، الأمر الذي عكس حالة مالنخوليا (Melancholia) وهي مرض عقليّ يُصاحب الهوس والاكتئاب، ويتميز بفقدان الاهتمام بالعالم الخارجي وفقدان القدرة على الحب، والشعور بالنقص [xxv]. وتؤدي هذه المتلازمة إلى سيطرة الأنا الأعلى على المشاعر، مع استسلام الأنا في حال العقاب، بدون إبداء أيّ اعتراض [xxvi]. ويمكن لهذا التفسير شرح أريحية الاعتراف عند غرينوي، حيث لم يكن يعبأ بحيثيات المحاكمة المشتملة على التعذيب وانتزاع الاعترافات "بدا لهم أن الرجل لا يشعر بالآلام الجسدية، حتى إنه لم يطلق أي صوت خلال التعذيب، وعندما كانوا يعاودون سؤاله، لم يجب إلا بقوله: كنتُ بحاجة إليهنّ، فاعتبره القضاة مختلاً عقلياً ". إنّ الرؤية الفرويدية تجزم بأنّ العمى في الحب يساهم في تكوين الشخصية الإجرامية [xxvii]، وقد لوحظ في سلوك غرنوي المضطرب محاولة إشباع رغبته في الحب، مع انعدام المبادلة من قبل الآخرين، مما أدّى إلى تصعيد الأنا ومحاولة استظهارها من خلال رائحة المحبوب، بدون اعتبار للقيم ولا العقوبة "أما ما كان يشتهيه فهو عبق بشر بعينهم: أولئك القلة النادرين الذين يلهمون الحب، هؤلاء كانوا ضحاياه".

ويوم تنفيذ الحكم بالإعدام، كان غرنوي في قمة مجده، على عكس التصور بأنه سيكون في أبأس لحظات حياته "كان يرتدي بزة زرقاء، وقميصاً أبيض، وجوارب حريرية بيضاء، وحذاء أسود بإبزيم، لم يكن مقيّداً، ولم يمسكه أحد من ذراعه، لقد ترجّل من العربة كرجل حُر". ولكنّ الثقة التي تحصّن بها غرنوي وانعدام الخوف التام كان نابعاً من استخدامه للعطر الذي صنعه من أجساد الفتيات، أي أنه ارتدى هويّته أخيراً، وحقق لنفسه الحلم الذي عاش لأجله، فلماذا يخاف من الموت. لكنّ الذي حدث وسط هياج الجماهير وتحلقهم لمشاهدة الإعدام، هو انقلاب الموقف تماماً لصالح غرنوي، فقد حرّكتْ رائحته العطرية غرائزهم، واستحلبتْ عواطفهم، وأصبح في لحظة هو المخلّص البريء، وليس القاتل الجاني "فكانت النتيجة أن انقلبتْ تحضيرات إعدام أشنع مجرم في عصره إلى أعظم حفلة مجون". لقد كان لانفصال غرنوي عن الجمهور منذ نشأته بالغ الأثر في تحاشي الاختلاط به، بالتالي شعوره بالوحدة، وظهوره بمظهر المختلف غير المألوف، من ثمّ نبذه. لكنّ ردة فعل الجمهور إزاء ظهور غرنوي، وانقيادهم لسطوة رائحته، والاستجابة لثورة غرائزهم الجنسية بدون تحفّظات؛ هذا الأمر يشير بإمعان إلى مصطلح "غريزة القطيع" الذي تبرز فيه سمات أساسية مثل الانحطاط الفكري، والاشتطاط العاطفي، والعجز عن ضبط النفس، والميل إلى تجاوز الحد في التظاهرات العاطفية المتجلية في الأفعال [xxviii]. إنّ تفاعل الجمهور بهذه الطريقة لم يدفع غرنوي إلى الامتنان ولم يمنحه السعادة، بل كان دافعاً له ليشعر باحتقار هذا القطيع الذي لم يقدر على محبّة غرنوي لذاته، بل لتأثيراته الجنسيّة.

إنّ الوصول إلى ذروة وجوده كان متمثلاً في هذه اللحظة التي بدت له تتويجاً عن كل معاناة وجدها في حياته، مما أشعره باحتقار لكل هؤلاء الناس الذين حصلوا على هوياتهم عند الولادة بدون اجتهاد. كان احتقاره لهم نابعاً من تفوقه عليهم، وشعوره بألوهيّته فوق الجميع "هو الضئيل الأحدب الأعرج البشع، الذي يتجنبه الجميع، والشنيع من الداخل والخارج على حد سواء، قد توصّل إلى جعل نفسه محبوباً من قِبل الجميع". لقد أحبّ هؤلاء الناس هويته المزيفة، لكنهم لم يدركوا هويّته الفعلية، وهو حين خدعهم، لم يتمكن من خداع نفسه، لذلك فقد احتقرهم لأنه ظلّ أمام نفسه ذلك اللقيط الفاشل بلا مستقبل [xxix]. هنا خلاصة البحث، الوصول إلى المحبة، إذ إنّ أيّ وجود لا بدّ وأن يرتبط به نوع من المحبة مهما كان ضئيلاً، إلا أنّ غرنوي لم ينل من تلك المحبة أيّ مقدار، عدا يوم إعدامه، فقد أحبته الجماهير كلها، وغفرت له، وأطلقت سراحه، مع ذلك فقد عرف حين ذاق الحب بأنه ليس الشيء الذي بحث عنه في حياته "إنّ ما تاق إليه دوماً هو أن يحبّه الآخرون، أصبح في لحظة نجاحه أمراً لا يُحتمل. فهو بالذات لا يحبّهم، بل إنه يكرههم. وفجأة أدرك غرنوي أنّ الحبّ أبداً لن يشبعه، وإنما الكُره، أن يَكره وأن يكون مكروها". ويمكن تفسير انقلاب الشعور من الحاجة إلى الحب إلى ضدها وهي الكراهية في نسبها إلى الحيلة العقلية في أعراض البارانويا الاضطهادية (التي تتسلط فيها أوهام الاعتداء من الآخرين على ذهن المريض) على سبيل رد الفعل، عن طريق نقل الشحنة النفسية من دافع الحب الذي يمكن إشباعه، إلى الكره الذي لا يمكن إشباعه [xxx].

٢- النزوع إلى العدم

بعد نيله العفو، اتجه غرنوي إلى باريس، بعد أن أدرك تماماً مغزى سعيه في الحياة، وبعد أن عرف لذة أن تكون للإنسان هوية، وأن يعترف الناس به ككائن موجود. اتجه إلى المقابر، وسكب على نفسه قارورة العطر كلها، كأنها يسكب قيمته، ويتشبع بها، عارفاً بأنها ستكون سبباً في فنائه. لقد كان مفعول وجوده يفوق الاعتياد، فقد هجم عليه المتواجدون، ومزقوه، وتقاسموه. وبالوصول إلى هذا الحدث؛ يمكن تلخيص الفصل الأخير كاملاً في اعتبار البحث عن الهوية مرادف للحاجة إلى الحب"فخلال دقائق، كان الملاك قد تمزق إلى ثلاثين قطعة. خطف كل فرد من المجموعة إحداها، منسحباً إلى الوراء، وقد ملأه الجشع الممتع ليلتهمها، بعد نصف ساعة كان جان باتيست غرنوي قد اختفى عن وجه الأرض دون أدنى أثر(...) كانوا فخورين على أقصى حد، فلأول مرة في حياتهم فعلوا شيئاً عن حب". إنّ غريزة الموت التي يؤدي إليها انفصال الغرائز تهدف إلى استمرار الحياة، فظهور الحياة سببٌ ــكما يفترض فرويدــ في السعي نحو الموت [xxxi]. تظهر هذه الغريزة في حاملي الأمراض العصابية القهرية التي تتسلط فيها الوساوس والمخاوف على ذهن المريض، أو تظهر في الحركات غير الإرادية [xxxii]، وقد دللت الأحداث على وجود مرض أو أكثر من هذه الأمراض في شخصية غرنوي، مما أدى إلى اندفاعه للموت على الرغم من تمسكه بحياته، وذلك لرغبته في الخلود من خلال الانقسام إلى ذرات أصغر، ومواصلة الحياة في أكثر من جسد. إنّ هذه الخاتمة ــعلى غرابتهاــ تشير إلى انهيار عقليّ تامّ لغرنوي، سبّبه اختلال التوازن النفسي في حياة البطل (مثل غالب شخصيات زوسكيند الرئيسية) فهُم في العادة مبدعون، ويملكون الإمكانيات الفنية، لكنهم غير مستقرين نفسياً، بالتالي، فإنّ حدث الانهيار الأخير هو القضية الأساسية في قصة العطر [xxxiii].

*** الخاتمة والنتائج**

تعرضتْ الدراسة لتجربة غرنوي الوجودية، متأثراً بفراغٍ أموميّ وغياب للروابط الاجتماعية. حيث تجلّى السرد بصوتٍ واحد، في منولوج عميق، عكس العلاقة الجدلية بين الوجود والعدم وتشكُّلات الهوية. وقد اختارت الدراسة تحليل الفعل وردّ الفعل عن طريق التحليل النفسي، وربطه ببعض

المشكلات الوجودية التي تفترضها الرواية. متوصّلة إلى وجود علاقة فعلية بين شخص غرنوي وغياب الرعاية الأبوية، إضافة إلى اضطراب هويته، ووجود أكثر من متلازمة مرَضية عائدة إلى أسباب النشأة. حيث يمكن إجمال تولّد الاضطراب الوجودي الذي مرّ به غرنوي من خلال الأحداث المفصلية في الرواية (جدول 1). أيضاً يمكن إجمال تأثير غياب ثلاث ركائز أساسية، هي الأم والأب (أو الدين)، والهوية، وحدوث اضطرابات على المستوى النفسي (جدول 2). ويجدر أيضاً الربط بين الأحداث المؤثّرة في الهوية، والفضاء الذي نشأتْ فيه (جدول 3).

جدول 1: الاضطراب الوجودي من خلال الأحداث المفصلية

عدم	حيرة	بحث	تطهير	إدراك	وجود	عدم
مولد بدون أبوين	نشأة الميتم	عمل السُّخرة	عزلة الجبل	انعدام الرائحة	يوم الإعدام	العودة إلى مكان الولادة

جدول 2: الاضطراب النفسي الناشئ عن غياب الركائز الأساسية

غياب الأم	غياب الأب أو المعتقد الديني	غياب الهوية
عقدة أوديب (xxxiv) الإحساس بالذنب غياب الهوية التعويض المضطرب	النرجسية العنف التسلط المطلق	مشاكل اللغة انطوائية انعدام القيم كبت جنسي انتقام

جدول 3: الفضاء الذي نشأت فيه الأحداث

باريس	الجبل	غراس
الميلاد النشأة الموت	التطهر إدراك المشكلة	خلق الهوية

وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:-

١- كانت حاسة الشمّ لدى غرنوي هي دليله في تحسس وجوده، وفي اختلاق هويته، ووصلتْ به إلى الهوس والاضطراب النفسي والاستحواذيّ، كما شكّلتْ ملاذاً له من تشوهات شخصيته وانحرافاته السلوكيّة. وتتبعت الدراسة ارتباط مشاكل غرنوي الوجودية بفقد والدته، الأمر الذي ترتّب عليه تعثره في الكلام، وانعدام عواطفه البشرية، وفقر روابطه الاجتماعية، إضافة إلى رغبته في استعادتها عن طريق خلق وجود متخيّل لها في رائحة الفتيات اليافعات اللاتي فقدن حياتهنّ على يده لتحقيق هذه الغاية.

٢- إنّ ميلاده الذي أدّى إلى إعدام أمّه قد ترك رواسب نفسية في لا وعيه ولّدت الإحساس بالذنب، فظهر محاولاً إحياء رائحتها، مع قتل صورتها المتمثلة في أجساد الفتيات، وهنا يتضح موضع التناقض في شخصيته.

٣- أدى تصاعد الحدث السرديّ إلى تشكيل صورة متكاملة عن متلازمة المرض النفسي الذي تغريه رائحة معينة ذات نمط خاص، تعبّر عن الاحتواء والقبول.

٤- جاءت الإجابة عن سؤال الدراسة حول هدف غرنوي من إيجاد هوية متمحورة حول طلب الحب، والربط بين الحب وانجذاب الناس للشابات الصغيرات، مما جعله يطلب رائحتهن كي ينال محبة الناس، وتعويضاً في الوقت نفسه عن غياب الأمّ عن حياته، عن طريق التلبّس برائحة أنثوية نقيّة، فالفتاة المقتولة ليست موضوعاً للحب بذاتها، ولا تثير فكرة جنسية في نفس غرنوي، لكن رائحتها تمنحه الطمأنينة التي يمنحها رحم الأم.

٥- أشارت نرجسية غرنوي واندفاعاته اللاواعية لتحقيق متطلباته إلى غياب السلطة العليا عن حياته متمثلة في غياب الأب وغياب المعتقد الذي يرتبط بالثواب والعقاب، ويخلق الخوف والندم.

٦- ظهرت في عزلة غرنوي في الجبل طقوس تطهير، تمثلت في الاعتكاف، ولفظ الروائح البشرية، وتنقية الذاكرة، مما أدى إلى تجلّي مشكلته الحقيقية له وإدراكه لماهيّتها.

٧- تجلت العقدة في الرواية باكتشاف غرنوي أنه لا يملك رائحة جسدية. ثم تصاعدت وتيرة الحدث، وارتبط ما قبلها بما بعدها ارتباطاً وثيقاً.

٨- اتّسم سلوكه في الجريمة باللامبالاة، وليس القسوة، لأنّ القسوة تقتضي العمد والقصد.

٩- أشارت الدراسة إلى وجود أكثر من متلازمة نفسية عاني منها غرنوي بسبب ظروف نشأته، مثل المالنخوليا، والاكتئاب، والبارانويا.

*** المراجع**

أنزيو، آني، المرأة الأنثى: بعيداً عن صفاتها، ترجمة: طلال حرب، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1992م).

تايلور، كاثلين، القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري، ترجمة: فردوس البهنساوي، (مصر: المركز القومي للترجمة، 2014م).

زوسكيند، باتريك، العطر (قصة قاتل)، ترجمة: نبيل الحفار، ط3، (سوريا: دار مدى للثقافة والنشر، 2003م).

زيلس، سباستيان، الشخصيات الغامضة لما بعد الحداثة: العبقرية والشرّ (ورقة عمل)، جامعة مانهايم، ألمانيا (2007م).

سارتر، جان بول، نظرية الانفعال: دراسة في الانفعال الفينومينولوجي، ترجمة: هاشم الحسيني، د.ط، (لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت).

سارتر، جان بول، الوجودية، مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحفني، (ب. ن 1964م).

فرويد، سيجموند، الأنا والهو، ترجمة محمد عثمان نجاتي، ط4، (لبنان: دار الشروق، 1982م).

فرويد، سيجموند، الكبت: تحليل نفسي، ترجمة: على حضارة، د.ط (مصر: المكتبة الشعبية، د.ت).

فرويد، سيجموند، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة: محمد نجاتي، وآخرون، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م).

فرويد، سيجموند، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ترجمة: جورج طرابيشي، ط2، (لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983م).

فرويد، سيجموند، علم نفس الجماهير وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، (لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006م).

فيستر، أندرياس، المؤلف فيما بعد الحداثة، مع دراسة عن حالة باتريك زوسكيند (أطروحة دكتوراه)، كلية الفلسفة، جامعة فرايبورغ، سويسرا (2005م).

كامل، فؤاد، الغير في فلسفة سارتر، د.ط، (مصر: دار المعارف، د.ت).

ليسينكو، داريا، بوبيناك، ماريجان، من المثالية إلى الانهيار العقلي (أطروحة)، جامعة زغرب، الكلية الفلسفية، قسم الدراسات الألمانية (2017م).

موقع دويتشه فيله DW، مقال بعنوان "باتريك زوسكند: الطفل المعجزة"، 2021/04/26م.

هايدجر، مارتن، الكينونة والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني، (لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2012م).

هايدجر، مارتن، الوجود والموجود، ترجمة: جمال سليمان، د.ط، (لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م).

هايدجر، مارتن، مدخل إلى الميتافيزيقيا، ترجمة: عماد نبيل، (لبنان: دار الفارابي، 2015م).

وهبه، مراد، المعجم الفلسفي، ط5، (مصر: دار قباء الجديدة، 2007م)

[i] باتريك زوسكيند، العطر (قصة قاتل)، ترجمة: نبيل الحفار، ط3، (سوريا: دار مدى للثقافة والنشر، 2003م).

[ii] باتريك زوسكند (Patrick Süskind): روائي ألماني معاصر، من مواليد (1949م)، عُرف برواية العطر (Das Parfum) المنشورة عام (1985م) والتي نالت شهرة واسعة، وترجمت إلى العديد من اللغات العالمية، إضافة إلى عدد من الأعمال الأدبية الأخرى، مثل قصة "الحمامة" و "حكاية السيد زومر" و "مسرحية الكونترباص"، وتتسم حياته بالبعد عن المشهد الاجتماعي والسياسي، إضافة إلى الغموض. ينظر موقع دويتشه فيله DW، مقال بعنوان "باتريك زوسكند: الطفل المعجزة"، 2021/04/26م.

[iii] ينظر آني أنزيو، المرأة الأنثى: بعيداً عن صفاتها، ترجمة: طلال حرب، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1992م)33.

[iv] مارتن هايدجر، مدخل إلى الميتافيزيقيا، ترجمة: عماد نبيل، (لبنان: دار الفارابي، 2015م)، 97.

[v] جان بول سارتر، الوجودية، مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحفني، (ب. ن 1964م)، 14.

[vi] ينظر سيجموند فرويد، الأنا والهو، ترجمة محمد عثمان نجاتي، ط4، (لبنان: دار الشروق، 1982م) 366.

[vii] مارتن هايدجر، مدخل إلى الميتافيزيقيا، 35.

[viii] المرجع السابق، 35.

[ix] ينظر جان بول سارتر، نظرية الانفعال: دراسة في الانفعال الفينومينولوجي، ترجمة: هاشم الحسيني، د.ط، (لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت) 104.

[x] ينظر كاثلين تايلور، القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري، ترجمة: فردوس البهنساوي، (مصر: المركز القومي للترجمة، 2014م)، 64.

[xi] فؤاد كامل، الغير في فلسفة سارتر، د.ط، (مصر: دار المعارف، د.ت)، 62.

[xii] ينظر تايلور، مرجع سابق، 220.

[xiii] مراد وهبه، المعجم الفلسفي، ط5، (مصر: دار قباء الجديدة، 2007م)، مادة (هوية) 677.

[xiv] ينظر مارتن هايدجر، الوجود والموجود، ترجمة: جمال سليمان، د.ط، (لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م)، 259.

[xv] سباستيان زيلس، الشخصيات الغامضة لما بعد الحداثة: العبقرية والشرّ (ورقة عمل)، جامعة مانهايم، ألمانيا (2007م).

[xvi] ينظر فؤاد كامل، مرجع سابق، 82.

[xvii] ينظر سيجموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة: محمد نجاتي، وآخرون، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م)، 164.

[xviii] ينظر مارتن هايدجر، الكينونة والزمان، ترجمة: فتحي المسكيني، (لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2012م)، 55.

[xix] ينظر سيجموند فرويد، علم نفس الجماهير وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، (لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006م)، 104.

[xx] ينظر آني أنزيو، مرجع سابق، 48.

[xxi] ينظر فرويد، الأنا والهو، 84.

[xxii] ينظر فرويد، علم نفس الجماهير، 91.

[xxiii] ينظر فرويد، المرجع السابق، 92.

[xxiv] ينظر سيجموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ترجمة: جورج طرابيشي، ط2، (لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983م)، 34.

[xxv] ينظر فرويد، الأنا والهو، 47.

[xxvi] ينظر فرويد، المرجع السابق، 83.

[xxvii] ينظر فرويد، علم نفس الجماهير، 92.

[xxviii] ينظر فرويد، المرجع السابق، 100.

[xxix] ينظر أندرياس فيستر، المؤلف فيما بعد الحداثة، مع دراسة عن حالة باتريك زوسكيند (أطروحة دكتوراه)، كلية الفلسفة، جامعة فرايبورغ/ سويسرا (2005م)، 113.

[xxx] ينظر فرويد، الأنا والهو، 71-72.

[xxxi] ينظر فرويد، المرجع السابق، 68.

[xxxii] ينظر فرويد، المرجع السابق، 69.

[xxxiii] ينظر داريا ليسينكو، ماريجان بوبيناك، من المثالية إلى الانهيار العقلي (أطروحة)، جامعة زغرب، الكلية الفلسفية، قسم الدراسات الألمانية (2017م) 17.

[xxxiv] هي اضطراب نفسي يُطلق على المريض شديد التعلّق بأمه. ينظر سيجموند فرويد، الكبت: تحليل نفسي، ترجمة: على حضارة، د.ط (مصر: المكتبة الشعبية، د.ت)، 57.